

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ

مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الأعراف: 13]

❁ مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا كَانَ امْتِنَاعُ إِبْلِيسَ مِنَ السَّجْدِ بِسَبَبِ تَكْبُرِهِ عَلَى اللَّهِ، بَعْدَ امْتِنَالِهِ لِأَمْرِهِ، وَتَكْبُرِهِ عَلَى آدَمَ عِنْدَ نَفْسِهِ، وَكَانَ مَجْرَدُ التَّكَبُّرِ عَلَى اللَّهِ كُفْرًا عَلَى أَيِّ وَجْهِ كَانَ؛ أَعْرَضَ عَنْ جَوَابِهِ بِغَيْرِ الطَّرْدِ، الَّذِي مَعْنَاهُ: نَزُولُهُ مِنَ الْمَنْزِلَةِ الَّتِي هُوَ فِيهَا؛ تَعْنِيْفًا لَهُ. وَأَيْضًا: لَمَّا كَانَ امْتِنَاعُ إِبْلِيسَ مِنَ السُّجُودِ لِإِظْهَارِ فَضْلِهِ وَارْتِفَاعِ مَنْزِلَتِهِ عَلَى آدَمَ؛ قَابَلَهُ اللَّهُ بِالْهَبُوطِ الْمُشْعِرِ بِالنُّزُولِ مِنْ عُلُوٍّ إِلَى أَسْفَلٍ؛ لِيَكُونَ مُسَبِّبًا عَنْ إِبَائِهِ (1).

الجزاء من
جنس العمل،
ولا يظلم ربك
أحدًا

❁ شَرْحُ الْمَفْرَدَاتِ:

(1) ﴿فَاهْبِطْ﴾: الهبوطُ؛ هو الانحدارُ على سبيل القَهَرِ من صعودٍ وَعُلُوٍّ، كهبوط الحجرِ، والهبوطُ بالفتح: المنحدرُ الَّذِي يَهْبِطُكُ مِنْ أَعْلَى إِلَى أَسْفَلٍ، وَهَبِطُ نَقِيضُ ارْتِفَاعٍ، وَيُقَالُ عَلَى الْمَجَازِ: هَبِطَ الرَّجُلُ؛ لَمَّا كَانَ فِي انْحِطَاطِ الْمَنْزِلَةِ، وَهَبِطُوا مِنْ حَالِ الْغِنَى إِلَى حَالِ الْفَقْرِ (2)، وَمَهَبِطٌ، وَمَهَبِطٌ، وَيَجْمَعُ عَلَى مَهَابِطٍ: اسمُ مَكَانٍ مِنْ هَبَطَ، وَهُوَ مَكَانُ النُّزُولِ، يُقَالُ: (مَكَّةُ الْمَهَبِطِ الْأَوَّلُ لِلوحي)، قَالَ الشَّاعِرُ:

وَالْعُمَرُ إِصْعَادُ إِنْسَانٍ وَمَهَبِطُهُ *** كَالْأَرْضِ أوديةً مِنْهَا وَأَجْبَالُ (3)

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/365، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/18.

(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والزمخشري، أساس البلاغة، والراغب، المفردات: (هبط)، وابن الهائم،

التبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 68.

(3) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية للعاصرة: (هبط).

(2) ﴿تَتَكَبَّرُ﴾: الكِبَرُ: هو الحالة التي يتخصَّص بها الإنسان من إعجابه بنفسه، وتعظيمه إياها، وذلك أن يرى الإنسان نفسه أكبر من غيره، بأن يتشَبَّعَ، فيُظْهِر من نفسه ما ليس له، وأعظم الكِبَرِ والتَّكَبُّرِ: ما وقع في جانب أوامر الله ونواهيه، وذلك أن يتكَبَّرَ على أداء طاعاته، والانزجار عن معاصيه⁽¹⁾، وقوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: 146]، قال الزجاج: "ومعنى ﴿يَتَكَبَّرُونَ﴾: أنهم يرون أنهم أفضل الخلق، وأن لهم من الحق ما ليس لغيرهم، وهذه الصفة لا تكون إلا لله خاصة؛ لأن الله ﷻ هو الذي له القدرة والفضل، الذي ليس لأحد مثله، وذلك الذي يستحق أن يقال له: المتكَبَّرُ، وليس لأحد أن يتكَبَّرَ؛ لأنَّ النَّاسَ في الحقوق سواء، فليس لأحد ما ليس لغيره"⁽²⁾، "والمراد بالتَّكَبُّر هنا: إمَّا التَّكَبُّر على الله تعالى، وهو أعظمُ التَّكَبُّر، ويكون بالامتناع من قبول الحق والإذعان له بالعبادة، وإمَّا التَّكَبُّر على آدم ﷺ، بزعم إبليس أنه خيرُ منه، وأكبرُ قدرًا"⁽³⁾.

(3) ﴿الصَّغِيرِينَ﴾: أصل الكلمة من الصَّغَر، والصَّغَرُ والكِبَرُ من الأسماء المتضادة، وتقالُ باعتبار الزَّمان، فيقالُ: فلانٌ صَغِيرٌ، وفلانٌ كَبِيرٌ؛ إذا كان ما له من السنين أقلَّ ممَّا للآخر، وباعتبار الجَنَّة، وباعتبار القَدَر والمنزلة، والصَّغَار مصدر الصَّغِير في القَدَر والمنزلة: هو الذُّلُّ الذي يُصَغَّر إلى المرء نفسه، والصَّاغِرُونَ: جمع صاغر، وهو المتَّصِفُ بالصَّغَارِ، أي: الذُّلُّ والحقارة، بمعنى: الأذلاء الرَّاغِبِينَ بالذلِّ⁽⁴⁾، قال ذو الرِّمَّة: تَصَاغَرَ أَشْرَافُ الْبَرِيَّةِ حَوْلَهُ *** لَا يَبْيَضُ صَافِي اللَّوْنِ مِنْ نَفَرٍ زُهْرٍ⁽⁵⁾.

❁ المعنى الإجمالي:

قال الله لإبليس: فاهبط من الجنة، فما يصحُّ لك أن تتكَبَّرَ فيها، فخرج منها، إنَّكَ من الدَّالِيلِينَ الْحَقِيرِينَ⁽⁶⁾، والمعنى: فَاهْطُ مِنَ السَّمَاءِ الَّتِي هِيَ مَكَانُ الْمُطِيعِينَ الْمُتَوَاضِعِينَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزَّاعِب، المفردات: (كبر).

(2) الرِّيْدِي، تاج العروس: (كبر).

(3) الألوَسي، روح المعاني: 4/331.

(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والزَّاعِب، المفردات: (صغر)، وابن الهائم، التَّيْبَان في تفسير غريب القرآن، ص: 146.

(5) ابن الهائم، التَّيْبَان في تفسير غريب القرآن: (صغر).

(6) نخبة من أساتذة التفسير، التفسير المبسَّط، ص: 152.

الأمرُ بهبوطِ
إبليسَ من
الجنةِ صاغراً
مذموماً

مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي هِيَ مَقَرُّ الْعَاصِينَ الْمُتَكَبِّرِينَ، مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ، فَمَا يَصْحُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا، وَتَعْصِي خَالِقَكَ، فَأَخْرَجَ إِنْكَ مِنْ أَهْلِ الصَّغَارِ وَالْهُوانِ عَلَى اللَّهِ، وَعَلَى أَوْلِيَائِهِ؛ لَتَكْبُرَكَ وَصَلْفَكَ (1).

❖ الإيضاح اللغوي والبلاغي:

دلالة الفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَهْبِطْ مِنْهَا﴾:

أفادتِ الفاءُ تعقيبَ هذا الجزاءِ وترتيبَه على ما ذُكِرَ مِنَ الذَّنْبِ قَبْلَهُ، مِنْ اعْتِرَاضِهِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي أَمْرِهِ، وَعَدَمِ امْتِثَالِهِ، وَادِّعَائِهِ الْخَيْرِيَّةَ عَلَى آدَمَ، وَعَتَوُّهُ فِي الْخُطَابِ، فَجَاءَ الْأَمْرُ بِالْهَبُوطِ مُسَبَّباً عَمَّا صَدَرَ مِنَ الْمَطْرُودِ، بِلَا تَأْخِيرٍ وَلَا مَهْلَةٍ (2)، وَالْهَبُوطُ: الْانْحِدَارُ، وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَهْبِطْ مِنْهَا﴾، أَي: أَخْرَجَ مِنْهَا، وَهُوَ بِذَلِكَ قَدْ انْحَدَرَ مِنَ الْأَعْلَى إِلَى الْأَسْفَلِ، وَفِي ذَلِكَ عَقُوبَةٌ مُسْتَحَقَّةٌ بِفِعْلِ الْعَصِيانِ الْعَلْنِيِّ، الَّذِي بَادَرَ بِهِ إِبْلِيسُ دُونَ أَنْ يُقَدَّرَ الْعَوَاقِبُ، مَعَ مَا أَظْهَرَهُ مِنْ غُرُورٍ وَفُجُورٍ فِي رَدِّهِ الْمُتَعَالِي عَلَى اللَّهِ جَلَّ فِي عِلَالِهِ.

نكتة التعبير بلفظ الهبوط:

لَمَّا كَانَ الْهَبُوطُ هُوَ الْانْحِدَارُ وَالسُّقُوطُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَا دُونَهُ، عَلَى سَبِيلِ الْقَهْرِ، أَوْ مِنْ مَكَانَةٍ وَمَنْزِلَةٍ إِلَى مَا دُونَهَا؛ دَلَّ عَلَى أَنَّ الْهَبُوطَ حَسِيٌّ وَمَعْنَوِيٌّ، وَكِلَا الْمَعْنِيِّينَ مَقْصُودَانِ، وَبَيَانُهُ: أَنَّهُ لَمَّا كَانَ امْتِنَاعُهُ مِنَ السُّجُودِ بِسَبَبِ كِبَرِهِ وَعُتُوِّهِ؛ عُبِّرَ بِلَفْظِ الْهَبُوطِ الْمُشْعِرِ بِالنُّزُولِ مِنْ عُلوٍّ إِلَى سُفْلٍ، وَالْحُدُورِ وَالْانْحِطَاطِ، وَالتُّقْصَانِ وَالْوُقُوعِ، وَأَيْضاً لَمَّا كَانَ مَقْصُودُ هَذِهِ السُّورَةِ الْإِنْذَارُ؛ عُبِّرَ بِالْهَبُوطِ الَّذِي يُلْزَمُ مِنْهُ سَقُوطُ الْمَنْزِلَةِ وَالْمَكَانَةِ، دُونَ الْخُرُوجِ، وَهُوَ أَدْلُّ عَلَيْهِ؛ لِمُوَافَقَتِهِ لِلأَمْرِ الَّذِي هُوَ مِنَ الْأَعْلَى إِلَى الْأَدْنَى، فَنَاسَبَ أَنْ يَكُونَ جَزَاءَ الْعِقَابِ هُوَ الْهَبُوطُ (3).

هبوطُ إبليسَ
حسِّيٌّ؛ بنزوله
من علوٍّ
إلى سُفْلٍ،
ومعنويٌّ؛
بسقوطِ المنزلةِ

(1) إبراهيم الأبياري، الموسوعة القرآنية: 9/483.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/346، ورشيد رضا، تفسير النار: 8/269.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 7/366، ورشيد رضا، تفسير النار: 8/269.

مناسبة عود الضمير على غير مذكور في قوله: ﴿مِنْهَا﴾:

يَحْتَمِلُ السِّيَاقُ
أَنْ يَكُونَ الْهَبُوطُ
هَبُوطَ مَكَانٍ، أَوْ
هَبُوطَ مَكَانَةٍ

لم يتقدّم للضمير مُفسّرٌ يعود عليه، ولمّا كان الضمير متعلّقًا بالفعل ﴿فَأَهْبِطُ﴾؛ دلّ على أنّ ما يعود إليه الضمير واقع في علوّ، ويوصف بالتأنيث، وهو معلوم بين المتكلّم والمخاطب، فذهب جمهور المفسّرين إلى أنّ السّيّاق يدلّ على أنّ المقصود هو الجنّة، وذهب بعضهم إلى أنّ الضمير يعود إلى ما يفهم منه، وهو السّماء⁽¹⁾، ولم يُصرّح بمرجع الضمير؛ لأنّ النّظر موجّه إلى الهبوط من علوّ، وليس إلى ذكر المكان المخصوص الذي يهبّط منه، كما أنّ المقام مقام إنذار في سياق الإخبار، عن تكبر إبليس وعُتوّه، فكُنّي بالضمير للإشعار بعلوّ شأن الجنّة أو السّماء، وانحطاط إبليس وسفله، قال الشعراوي: "والهبوط يستدعي الانتقال من منزلة عالية إلى منزلة أقلّ، وهذا ما جعل العلماء يقولون: إنّ الجنّة التي وصفها الله بأنّها عالية، هي في السّماء، ونقول: لا، فالهبوط لا يستدعي أن يكون هبوطًا مكانيًا، بل قد يكون هبوطًا مكانيًا، وهناك فرق بين هبوط المكان، وهبوط المكانة، وقد قال الحقّ لنوح ﷺ: ﴿قِيلَ يَنْتُحِ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ﴾ [هود: 48]، أي: اهبط من السفينة"⁽²⁾.

براعة التعبير بالفاء:

التَّكَبُّرُ لَا يَلِيْقُ
بَأَهْلِ الْجَنَّةِ،
وَلِلَّهِ الْكِبْرِيَاءُ لَا
لِسَوَاهِ

في قوله تعالى: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾: أفادت الفاء معنى السببية، وترتّب ما بعدها على ما قبلها، أي: تسبّب عن أمره بالهبوط، أنّ لا يتكبر فيها، فإنّها مكان المطيعين الخاشعين؛ للإشعار بأنّ التكبر لا يليق بأهل الجنّة، ومن عجيب بلاغة الكلام هنا أنّه كما كان الهبوط من الجنّة سببًا لكي لا يتكبر فيها؛ أشعر الكلام بأنّ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/329، والبلغوي، معالم التنزيل: 2/182، وابن عطية، المحرر الوجيز:

2/379.

(2) محمّد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي (الخواطر): 7/1065.

تَكْبُرُهُ سَبَبٌ لِلأَمْرِ بِالْهَبْوَطِ؛ لِلإِشْعَارِ بِأَنَّ تَكْبُرَ إِبْلِيسَ وَصِفَ لَازِمٌ لَهُ،
كَمَا أَفَادَتِ الْفَاءُ السَّبَبِيَّةُ أَنَّهُ تَعَالَى إِنَّمَا طَرَدَهُ لاعتراضه على الله
تعالى، ولتَكْبُرِهِ على أمره سبحانه، لا لمجرد عصيانه بعدم الامتثال⁽¹⁾.

دلالة النفي في قوله: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ﴾:

النَّفْيُ بصيغة: (ما يكون لك كذا)، أَشَدُّ مِنَ النَّفْيِ بـ (ليس لك
كذا)؛ لِأَنَّ نَفْيَ الْكُونِ وَالْإِمْكَانِ أبلغُ أَنْوَاعِ النَّفْيِ وَأَشَدُّهُ، فَدَلَّ التَّعْبِيرُ
فِي قَوْلِهِ: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ بهذا الأسلوب، على أَنَّ
تَكْبُرَ إِبْلِيسَ لَا يُغْتَفَرُ مِنْهُ أَبَدًا، وَأَنَّهُ ارْتَكَبَ أعظمَ ذَنْبٍ وَأَشَدَّهُ⁽²⁾.

دلالة ﴿يَكُونُ﴾ بين النقصان والتَّامُّ:

تَحْتَمِلُ ﴿يَكُونُ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ
فِيهَا﴾ أَنْ تَكُونَ نَاقِصَةً، فَيَكُونُ لَهَا اسْمٌ وَخَبَرٌ، كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ مَا
ذَهَبَ إِلَيْهِ ابْنُ عَاشُورٍ، وَبَيَّانُهُ: أَنَّ أَصْلَ هَذَا التَّرْكِيبِ فِي الْكَلَامِ: (مَا
يَكُونُ إِبْلِيسُ مُتَكَبِّرًا فِي الْجَنَّةِ)، فَلَمَّا أُريدَتِ الْمُبَالَغَةُ فِي النَّفْيِ؛ عَدَلَ
عَنْ نَفْيِ اسْمِ الْفَاعِلِ إِلَى نَفْيِ الْمَصْدَرِ: ﴿أَنْ تَتَكَبَّرَ﴾، الدَّالُّ عَلَى
الْجِنْسِ، وَجَعَلَ نَفْيَ الْجِنْسِ عَنْ إِبْلِيسَ، بِوَاسِطَةِ نَفْيِ الْاسْتِحْقَاقِ،
فَصَارَ التَّرْكِيبُ: مَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ، أَي: لَيْسَ التَّكْبُّرُ مَجْعُولًا لَكَ
فِي الْجَنَّةِ، فَأَفَادَ الْعَدُولُ عَنِ الْأَصْلِ الْمُبَالَغَةَ فِي نَفْيِ أَنْ يَكُونَ أَيُّ تَكْبُّرٍ
فِي الْجَنَّةِ. وَتَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ تَامَّةً، وَهُوَ الظَّاهِرُ مِنَ السِّيَاقِ؛ لِتَكُونَ
بِمَعْنَى الْحَصُولِ أَوْ الْوُجُودِ؛ وَلِيَكُونَ الْمَنْفِيُّ أَعَمَّ مَا يَحْتَمِلُهُ الْكَلَامُ،
وَالْمَعْنَى: مَا يَقَعُ أَوْ مَا يَوْجَدُ التَّكْبُّرُ فِي الْجَنَّةِ، فَلَمَّا نَفَى أَصْلَ الْوُجُودِ؛
دَلَّ عَلَى الْمُبَالَغَةِ فِي النَّفْيِ⁽³⁾.

لا يبرأ إبليس
من الذنوب، ولا
يعفو عنه علام
الغيوب

لا كبرياء في
الجنة، بل
سيكون أهلها
إخواناً على سُرُرٍ
مقابلين

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/217.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/44.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 7/366، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/294، 8/44، ودرويش، إعراب

القرآن وبيانه: 3/312.

مناسبة مجيء الكلام على خلاف مقتضى الظاهر:

ما يصحُّ التكبر
في الجنة؛ لأنه
صفة أهل الدنيا

لَمَّا كَانَ وَقُوعُ التَّكْبَرِ مِنْ إِبْلِيسَ قَدْ حَصَلَ، كَانَ نَفْيُ وَقُوعِ التَّكْبَرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ عَلَى خِلَافٍ مَقْتَضَى الظَّاهِرِ، فَاَلْمَقْطُوعُ بِوُقُوعِهِ لَا يُنْفَى، وَمُنَاسِبَتُهُ: أَنَّهُ لَمَّا أُريدَ الْمَبَالِغَةُ فِي نَفْيِ صِفَةِ التَّكْبَرِ فِي الْجَنَّةِ، تَوَجَّهَ النَّفْيُ إِلَى الْكُونِ وَالْإِمْكَانِ؛ لِنفْيِ أَصْلِ وَقُوعِهِ، لِيَكُونَ عَلَى مَعْنَى الْإِغْلَاطِ عَلَى إِبْلِيسَ، وَالْمَعْنَى: مَا يَصَحُّ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا، وَمَا يَتَوَجَّهُ بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ، أَوْ مَا يَنْبَغِي أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا⁽¹⁾.

دلالة النفي على النهي:

استلزام نفي
التكبر النهي
عنه، والتحذير
منه

لَمَّا كَانَ إِبْلِيسُ قَدْ تَكَبَّرَ فِي عَدَمِ سَجُودِهِ؛ أَفَادَ نَفْيُ صِفَةِ وَقُوعِ التَّكْبَرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ اسْتِلْزَامَهُ النَّهْيَ عَنْهُ؛ لِأَنَّهُ نَفَاهُ عَنْهُ مَعَ وَقُوعِهِ⁽²⁾، وَقَالَ لَهُ: "لَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ تَتَكَبَّرَ فِي هَذَا الْمَكَانِ الْمُعَدَّ لِلْكَرَامَةِ وَالْعَظِيمِ، ثُمَّ تَعْصِي رَبَّكَ فِيهِ"⁽³⁾، وَفِي هَذَا نَفْيُ لَصِفَةِ التَّكْبَرِ فِي الْجَنَّةِ، وَهِيَ بِمَعْنَى: النَّهْيُ عَنْ هَذَا الْفِعْلِ الْمَشِينِ الَّذِي اسْتَنَّهُ إِبْلِيسُ فِي الْكُونِ.

نكتة التعبير بقوله: ﴿لَكَ﴾:

أشدُّ الكفر من
كفر بالله، وارتدَّ
بعد أن عبده،
وعرف هداؤه

لَيْسَ فِي الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ الْمُقَدَّمِ عَلَى عَامِلِهِ فِي ﴿لَكَ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ أَيُّ تَخْصِيصٍ، بَلْ هُوَ لِلْعَنَايَةِ وَالْاهْتِمَامِ لِبَيَانِ خَطَرِ تَكْبَرِ إِبْلِيسَ وَهَوْلِ عِقَابِهِ، كَمَا أَنَّ مَجِيءَ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ - أَصْلًا - أَفَادَ التَّغْلِيظَ عَلَى إِبْلِيسَ فِي تَكْبَرِهِ؛ لِلإِذَانِ بِأَنَّهُ كَانَ الْأَوَّلَى بِإِبْلِيسَ اللَّعِينِ أَلَّا يَتَكَبَّرَ، وَهُوَ الَّذِي كَانَ مَعَ الْمَلَائِكَةِ حِينَ خَاطَبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، وَأَمَرَهُمُ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ، وَهُوَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/366، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/7، وأبو حيان، البحر الحيط: 5/19، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/346.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/44.

(3) إبراهيم القطان، تيسير التفسير: 2/35.

أُسْلُوبٌ عَرَبِيٌّ مُسْتَعْمَلٌ فِي بَدِيعِ الْكَلَامِ كَمَا يُبَيَّنُّ عَنْهُ قَوْلُنَا لِشَخْصٍ عَرَفَ اللَّهَ وَعَبَدَهُ زَمْنًا، ثُمَّ نَكَصَ عَلَى عَقْبِيهِ، كَافِرًا بِهِ ﷺ، فَتَقُولُ لَهُ: (مَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَكْفَرَ بِاللَّهِ)، فَلَيْسَ الْغَرَضُ أَنَّ غَيْرَهُ لَهُ الْحَقُّ فِي الْكُفْرِ، بَلِ الْأَمْرُ عَلَى سَبِيلِ الْإِعْلَاطِ، عَلَى قُبْحِ مَا فَعَلَهُ (1)، مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ قَدْ عَرَفَ اللَّهَ وَعَبَدَهُ زَمْنًا، وَمَنْ عَرَفَ وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يُلْزَمَ، وَمَنْ انْسَلَخَ مِنَ الْمَلَّةِ، وَارْتَدَّ عَنِ الْمَحَجَّةِ؛ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ.

نكتة التعبير بصيغة تفعّل في قوله تعالى: ﴿أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾:

أفادت صيغة: ﴿تَتَكَبَّرَ﴾ معنى التَّكَبُّرِ، أي: أَنْ يجعلَ نفسه أكبرَ ممَّا هي عليه، أو أكبرَ ممَّن هي في ذاتها أصغرَ منه، وعُبرَ بصيغة التَّفَعُّلِ للإشعارِ بتعمُّدِ الكِبَرِ وتكلفه فيه، وبذَلِ الجهدِ في تحصيله، معَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ، وَلَا يَلِيقُ بِهِ (2).

التَّكَبُّرُ: أَنْ يجعلَ
نفسه أكبرَ ممَّا
هي عليه

علّة التعبير بالمصدر المؤوّل في قوله تعالى: ﴿أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾:

عُبرَ بالمصدرِ المؤوّل: ﴿أَنْ تَتَكَبَّرَ﴾؛ لإفادة نفي أيّ نوعٍ من أنواعِ التَّكَبُّرِ، ففي التعبيرِ به تحصينٌ مِنَ الإشكالِ، وتخليصٌ له مِنْ شوائبِ الإجمالِ، الَّذِي يَكُونُ فِي الْمَصْدَرِ الصَّرِيحِ (3)، فِي مِثْلِ هَذَا السِّيَاقِ، وَلَوْ قَالَ: (مَا يَكُونُ لَكَ التَّكَبُّرُ فِيهَا)؛ لاحتَمَلَ الْمَصْدَرُ الصَّرِيحُ السُّؤَالَ عَنْ أَيِّ نَوْعٍ مِنَ أَنْوَاعِ التَّكَبُّرِ الْمُنْفِي فِي الْكَلَامِ؟ فَلَمَّا عُبرَ بِالْمَصْدَرِ الْمُؤَوَّلِ؛ أفادَ أَنَّ نَفْسَ التَّكَبُّرِ قَبِيحٌ، وَهُوَ الَّذِي يَنْبَغِي أَلَّا يَكُونَ، وَلَا يَصِحُّ وجودُهُ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ، إِلَى أَيِّ وَصْفٍ آخَرٍ لَهُ.

التَّكَبُّرُ قَبِيحٌ فِي
ذاته، وَلَا يَنْبَغِي
وجودُهُ، مِنْ
غَيْرِ نَظَرٍ إِلَى أَيِّ
وصفٍ آخَرٍ لَهُ

سرُّ التعبير بالمضارع: ﴿تَتَكَبَّرَ﴾:

تُوسَّلُ بِالْمَصْدَرِ الْمُؤَوَّلِ لِلتَّعْبِيرِ بِصِيغَةِ الْفِعْلِ الْمَضَارِعِ: ﴿تَتَكَبَّرَ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾؛ لِتَصْوِيرِ حَالَةِ قُبْحِ

إظهارُ شناعةِ
حالةِ إبليسَ،
عندَ إظهارِ تكبُّره
فِي الْجَنَّةِ

(1) ابن عطية، للحرر الوجيز: 2/379.

(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/296.

(3) ابن قَيِّمِ الجوزية، بدائع الفوائد: 1/92 - 93.

إبليس، وهو يتكبر في الجنة، التي لا يليق فيها التكبر؛ إظهاراً لشناعة فعله وفضاعته.

مناسبة مجيء الحال في قوله تعالى: ﴿فِيهَا﴾:

التكبر منهى عنه
مطلقاً في الجنة
وفي غيرها

لما كان الحال قيداً لعامله، وكان ﴿فِيهَا﴾ حالاً من فاعل ﴿تَتَكَبَّرُ﴾؛ دلّ على أنّ المعنى: ما يكون لك - يا إبليس - أن تتكبر في الجنة حال كونك فيها، وأشعر القيد إمكان وقوعه في غير الجنة، والمعنى: فاهبط من الجنة، فإنه لا يسكن الجنة متكبر عن أمر الله، فأما غيرها، فإنه قد يسكنها المستكبر عن أمر الله، والمستكين لطاعته، وفيه تأكيد على أنّ التكبر لا يليق بأهل الجنة، وأنه ﴿لَئِنَّمَا طَرَدَهُ وَأَهْبَطَهُ لَتَكْبَرُهُ، لَا لِمَجَرَّدِ عِصْيَانِهِ. وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ قَيْدَ الْحَالِ بِ﴿فِيهَا﴾؛ تَهْوِيلاً لِأَمْرِ التَّكْبَرِ فِي الْجَنَّةِ؛ لِأَنَّ التَّكْبَرَ مِنْهُيٌّ عَنْهُ مطلقاً، في الجنة وفي غيرها⁽¹⁾.

توجيه التشابه اللفظي:

أمر الله
بالخروج من
الجنة مقرون
بالتعنيف،
والأمر بالهبوط
ليس كذلك

قال الله تعالى في آية (الأعراف): ﴿فَأَهْبِطْ مِنْهَا﴾ وفي آية (ص): ﴿فَأَخْرِجْ مِنْهَا﴾ [ص: 77]، وليس التعبير بالإخراج كالتعبير بالهبوط، فقد أمر آدم بالهبوط، ولم يقصد من تعنيفه ما قصد إبليس، فالفرق ما بين العبارتين فيما تُعطيان: أنه في سورة الأعراف تدرج في التعنيف والإغلاظ؛ ليدلّ على أنّ سبب الهبوط، هو اعتراضه على أمره تعالى، واعتقاده خيريته على آدم، فما كان لله تعالى أن يأمره بما أمره، بحسب ظنه وتوهمه، ثم أمره بالخروج المسبب عن تكبره؛ ليكون أبلغ في الإغلاظ لمناسبة المقام، فقال: ﴿فَأَخْرِجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾، وسبق الأمر بالخروج في سورة الحجر من أول وهلة؛ لظهور اعتراضه على أمر الله وتكبره في قوله: ﴿لَمْ أَكُنْ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/329، والماوردي، التكت والعيون: 2/4، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/6، والباقعي، نظم الدرر: 7/366.

لَأَسْجِدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلَاسٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ [ص: 33]، فأعقبه بقوله: ﴿فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [ص: 34]، ولَمَّا كَانَ فِي سُورَةِ (ص) قَدْ ذَكَرَ تَكْبُّرَهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [ص: 75]؛ نَاسَبَهُ ذِكْرُ الْأَمْرِ بِالْخُرُوجِ دُونَ الْهَبُوطِ؛ لِأَنَّ الْخُرُوجَ مُسَبَّبٌ عَنِ التَّكْبُّرِ، فَجَاءَ كُلُّ عَلَى مَا يَجِبُ وَيُنَاسِبُ، وَلَمْ يَكُنْ لِيُنَاسِبَ وَرُودُ الْعَكْسِ فِي الْمَوَاضِعِ الثَّلَاثَةِ⁽¹⁾.

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَأَخْرِجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾:

أَفَادَتِ الْفَاءُ مَعْنَى السَّبَبِيَّةِ وَالتَّفْرِيعِ عَنِ الْأَمْرِ بِالْهَبُوطِ، وَالْمَعْنَى: الْأَمْرُ بِالْهَبُوطِ سَبَبٌ لِلأَمْرِ بِالْخُرُوجِ مِنَ الْجَنَّةِ وَتَعْلِيلٌ لَهُ⁽²⁾، "قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَخْرِجْ﴾ تَشِيرُ إِلَى أَنَّ سَبَبَ الْأَمْرِ بِالْهَبُوطِ هُوَ التَّكْبُّرُ، وَالْمَعْنَى: إِذَا كُنْتَ تَتَكَبَّرُ ذَلِكَ التَّكْبُّرُ، فَالْأَوَّلَى لِنَفْسِكَ أَنْ تَهْبِطَ، فَتَكُونَ مِنَ الصَّاعِرِينَ"⁽³⁾.

دلالة قوله تعالى: ﴿فَأَخْرِجْ﴾ بَيْنَ التَّأْكِيدِ وَالتَّاسِيسِ:

تَحْتَمِلُ جُمْلَةُ: ﴿فَأَخْرِجْ﴾ أَنْ تَكُونَ بَيَانًا وَتَفْسِيرًا لِقَوْلِهِ: ﴿فَاهْبِطْ﴾، كَأَنَّهُ كَرَّرَ مَعْنَى الْهَبُوطِ لِتَأْكِيدِهِ وَتَقْرِيرِهِ، فَإِنَّ الْهَبُوطَ مِنَ الْجَنَّةِ خُرُوجٌ مِنْهَا⁽⁴⁾. وَتَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ دَالَّةً عَلَى مَعْنَى آخَرَ عَلَى سَبِيلِ التَّاسِيسِ، فَإِنَّهُ لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ إِبْلِيسَ بِالْهَبُوطِ، قَدْ يَتَوَهَّمُ مَتَوَهَّمٌ أَنَّهُ هَبِطَ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ آخَرَ فِيهِ كَرَامَةٌ أَيْضًا، فَصُرِّحَ بِالْخُرُوجِ مِنْهَا؛ لِيَكُونَ عَلَى مَعْنَى الطَّرْدِ مِنْهَا صَاحِرًا ذَلِيلًا، وَمَنْعِهِ مِنْ دُخُولِهَا مَرَّةً أُخْرَى، وَلِهَذَا أَعْقَبَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾؛ لِيَكُونَ خُرُوجُهُ عَلَى سَبِيلِ الْإِهَانَةِ. وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْخُرُوجُ عَقُوبَةً خَاصَّةً بِهِ؛ لِلْإِشْعَارِ بِعَقُوبَةِ الْإِبْعَادِ عَنِ الْمَكَانِ الْمُقَدَّسِ الْفَاضِلِ،

الأمرُ بالهبوطِ
سببٌ للأمرِ
بالخروجِ مِنَ
الجنةِ

خروجُ إبليسَ
مِنَ الْجَنَّةِ صَاحِرًا
ذَلِيلًا، مَعَ مَنْعِهِ
الْأَبْدِيِّ مِنَ
دُخُولِهَا

(1) الغرناطي، ملائكة التأويل: 1/178.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 5/19، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/217.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير 5/2796.

(4) أبو حيان، البحر المحيط: 5/19، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/217.

المطهر من كل ما له وصف ينافيه؛ لأنَّ خُلِقَ التَّكْبُرُ غيرَ ملائمٍ لما جعل الله ذلك المكانَ له⁽¹⁾.

براعة التعبير بين الاستئناف البياني والتعليل:

مَن ارتدى رداء
الاستكبار؛ آل
به الأمر إلى
هوانٍ وبوارٍ

تَحْتَمِلُ جملة: ﴿إِنَّكَ مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ أَنْ تكونَ على طريق الاستئناف البياني؛ إذا كَانَ المرادُ مِنَ الخبرِ الإخبارَ عن تكوينِ الصَّغَارِ في إبليس، بجعلِ الله تعالى إِيَّاه صَاغِرًا حَقِيرًا حَيْثُمَا حلَّ، فَفَصَلَهَا عن اللَّيِّ قَبْلَهَا للاستئنافِ المُبَيِّنِ للسَّبَبِ الخاصِّ، كَأَنَّهُ قيل: هل خروجه مِنَ الجَنَّةِ خروجٌ صَغَارٍ وَذِلَّةٍ؟ فَأُجِيبَ بقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾. وَتَحْتَمِلُ أَنْ تكونَ واقعةً موقعَ التَّعلِيلِ للإخراج، على طريقة استعمال (إِنَّ) في مثل هذا المقام استعمالَ فاءِ التَّعلِيلِ، فهذا إذا كَانَ المرادُ مِنَ الخبرِ إظهارَ ما فيه مِنَ الصَّغَارِ والحقارةِ الَّتِي غفلَ عنها، فذهبتَ به الغفلة عنها إلى التَّكْبُرِ⁽²⁾.

نكتة التعبير بلفظ: ﴿الصَّغِيرِينَ﴾:

الكناية: إثبات
الشيء بإثبات
ملزومه،
وهي أبلغ من
التصريح

قد يقال: لِمَ لَمْ يَقُلْ: (إِنَّكَ صَاغِرٌ)، وهو أَخَصَرُ، والمعنى واحدٌ؟ والجواب: ليس المعنى بواحدٍ، وبينهما فرقٌ، فَإِنَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾، أَشَدُّ في إثباتِ الصَّغَارِ لإِبْلِيسَ مِنْ نحو: (إِنَّكَ صَاغِرٌ)، أو قد (صَغُرْتَ)، وبيانه: أَنَّهُ لَمَّا كَانَتْ (أَل) في قوله: ﴿الصَّغِيرِينَ﴾ جنسيَّةً؛ دَلَّتْ على أَنَّهُ واحدٌ مِنَ الفئَةِ المعروفةِ بالصَّغَارِ، ومعدودٌ منهم، فيكونُ قد أَثْبَتَ صَغَارَهُ بطريقةٍ تُشَبِّهُ الاستدلالَ، فَإِنَّ مَنْ كَانَ مِنْ فِئَةٍ موصوفةٍ بوصفٍ، ثَبَتَ له هذا الوصفُ بطريقِ اللَّازِمِ؛ ليكونَ من قبيلِ الكنايةِ الَّتِي هي إثباتُ الشيءِ بإثباتِ ملزومه، وهي أبلغُ مِنَ التَّصريحِ، فكأنَّه أَثْبَتَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/44.

(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/297، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/45.

الصَّغَارَ لَهُ مَرَّتَيْنِ: مَرَّةً لِأَنَّهُ عَدَّهُ مِنْ زُمْرَةِ الصَّاغِرِينَ، وَأُخْرَى حِينَ أَثْبَتَ لَهُ الْوَصْفَ بِاللُّزُومِ⁽¹⁾.

مناسبة ذكر الصغار في الآية الكريمة:

لَمَّا كَانَ خُرُوجُ إِبْلِيسَ مِنَ الْجَنَّةِ بِسَبَبِ تَكْبُرِهِ؛ أَخْبَرَ بِصَغَارِهِ وَذِلَّتِهِ؛ لِيَكُونَ جَزَاءً عَلَى تَكْبُرِهِ، وَقُبِيلَ بِالضَّدِّ مِمَّا اتَّصَفَ بِهِ، وَهُوَ الصَّغَارُ الَّذِي هُوَ ضِدُّ التَّكْبُرِ، وَكَوْنُهُ مِنَ الصَّاغِرِينَ، أَي: مِنَ أَهْلِ الصَّغَارِ وَالْهَوَانِ عَلَى اللَّهِ وَعَلَى أَوْلِيَائِهِ، يَذُمُّهُ كُلُّ إِنْسَانٍ، وَيَلْعَنُهُ كُلُّ لِسَانٍ، لِتَكْبُرِهِ، وَبِهِ عُلِمَ أَنَّ الصَّغَارَ لَا زُمْ لِّلْاِسْتِكْبَارِ⁽²⁾.

❁ الْفُرُوقُ الْمُجَمِّيَّةُ:

(الهبوط) و(الإنزال):

يُسْتَعْمَلُ الْهَبُوطُ عَلَى سَبِيلِ الْاِسْتِخْفَافِ وَالْعُقُوبَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُلْنَا أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: 36]، وَقَالَ: ﴿فَأَهْبِطُ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف: 13]، وَقَالَ: ﴿فَإِنْ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: 61]، وَلَيْسَ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: 61] تَعْظِيمٌ وَتَشْرِيفٌ؛ إِذْ أَعْقَبَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: 61]، وَقَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [البقرة: 38]. وَأَمَّا الْإِنْزَالُ فَيُسْتَعْمَلُ فِي مَقَامِ التَّشْرِيفِ وَالتَّكْرِيمِ، فَهُوَ بِخِلَافِ الْهَبُوطِ؛ إِذْ ذَكَرَهُ تَعَالَى فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي نَبَّهَ عَلَى شَرَفِهَا، كَإِنْزَالِ الْمَلَائِكَةِ وَالْقُرْآنِ وَالْمَطَرِ وَغَيْرِهَا، فَنَاسَبَ ذِكْرَ الْهَبُوطِ فِي الْآيَةِ دُونَ الْإِنْزَالِ؛ لِمُنَاسَبَتِهِ الْمَقَامَ.

مَنْ اتَّصَفَ بِصِفَةِ
الْاِسْتِكْبَارِ؛
عَاقِبَةُ اللَّهِ
بِالصَّغَارِ

يُسْتَعْمَلُ
الْهَبُوطُ: فِي
مَقَامِ الْعُقُوبَةِ،
وَالْإِنْزَالِ: فِي
مَقَامِ التَّكْرِيمِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/45.
(2) السفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 8/45.



عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني عشر، سورة الأنعام من الآية 124 إلى سورة الأعراف الآية 13
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

سنة الطبع: 1445هـ - 2024م

© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي

الطبعة الأولى: 2024م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:

مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: سورة الأنعام من الآية 124 إلى سورة الأعراف الآية 13 [إشراف مجمع القرآن

الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-

الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2024.

مج. 12، 804 صفحة؛ 24x17 سم.

ردمك: 4-4-64-798-9948-978

يشتمل على ارجاعات ببلوجرافية.

مج. 12: سورة الأنعام من الآية 124 إلى سورة الأعراف الآية 13.

1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-

ألفاظ أ- العنوان ب- مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).

قسم الدراسات والبحوث

التقييم الدولي: 4-4-64-798-9948-978

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-1637585 بتاريخ 2023/12/19م،

مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري

الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»